الحياة الفكرية

فى عهد المشادة وعصر الاستقرار

من الشائع المتعارف أن عصور السمو الفكرى والتفوق الفنى والنبوغ الأدبى فى حياة الأمم وسير الحضارات ليست هى الأوقات الممتازة من الناحية الأخلاقية أو من الوجهة السياسية ، وقد اشتدت العناية بالأدب وكثر تذوق الفن وعظم الإقبال على صنوف العلم فى أغلب نهضات الأمم ووثباتها المأثورة بعد انتهاء عهد الطموح الوطنى والانتصار السياسى ، وكانت تلك الحياة الفكرية الخصبة نتيجة منظورة من نتائجه وثمرة مرتقبة من ثمراته . فأثينا وإسبارطة لم يخرجا أبدع طرائفهما الأدبية وأنفس آيات فنهما فى عصر اكتمال قوتهما السياسية وفى ريعان عزتهما القومية ، وفى عهد بركليس لما أخذت تظهر بوادر الضعف وتفشو علامات التدهور والانحلال كثر التهافت على الفن وذاع التعلق بالأدب والإقبال على العلم كأنه نتيجة لازمة محتومة وعلامة واضحة الدلالة على بدء نضوب القوة القديمة ونفاد الحيوية الكامنة ، وكذلك كان الحال فى روما ، وذلك أنها لما لانت قوتها وثبت القانون وتوطد النظام واستتبت الأحوال وترققت الطبائع النافرة ولطفت الأمزجة الجامحة ساد الفن ، وعم الأدب ، وارتفع شأن الحياة الفكرية ، وقد جاء هوميروس فى العصور القديمة ليتغنى بمفاخر أبطال طروادة ، كما جاء شكسبير فى ختام العصور الوسطى ليروى لنا قصة النفس الإنسانية فى تلك العصور وما انتابها من أهواء وشهوات ونزعات وميول وليحدثنا عما كان فى حياة أهلها من ألوان الجد والعبوس وأفانين الهزل

والفكاهة والمجون والدعابة . ولما انتهى عصر الفتوحات الإسلامية كثر المؤرخون والوصافون وكتاب السير ورواة الأخبار . وقد ظهرت الديانة البوذية العظيمة بالهند فى عصر من عصور الأمن والهدوء والحياة رضية مذللة إذ كان العالم فى القرن السادس قبل الميلاد متقلباً مضطرباً يعانى أشد الأزمات والحوادث ما بين مصعدات بالدول ومنحدرات مع أن الهند قد حمتها جبالها الشم من خطر الاتصال بالعالم الخارجى والانغماس فى فوضاه ونأت بها عن اضطراباته الفاجعة ونزواته الهادمة . وكان السلام مرفرفاً فى ربوعها فلا تناحر على البقاء ولا اقتتال على القوت والغذاء ومنتهى أرب الأمراء صيد النمور واقتناص الفيلة لا الغزو والفتح وسفك الدماء وإزهاق الأرواح . وقد ولد فى هذا العصر الهادئ الوديع فى إحدى مقاطعات الهند جو تاما بوذا وتنزل عليه وحى حكمته وهو جالس تحت ظلال شجرة « البو » الجميلة فكانت البوذية ثمرة تلك الحياة الوادعة الحالمة الشبيهة بظلال الخيال ومخيرات الأمانى والآمال . وقد يدعونا ذلك إلى أن نستخلص أن الحياة الفكرية تنمو وتزهر حيث تستمكن الحضارة وتستقر الحياة ويأمن الناس صولة الثورات وطوارئ الحدثان ويظفرون فى هذا الأمن الشامل بالهدوء الذهنى والفراغ اللازمين لظهور بدائع الفن وطرف الأدب ، ومادام الفن يحتاج إلى الإتقان والتجويد والأناة وإعمال الفكرة والانصراف عن الشواغل فى العالم الخارجى فأحر بأيام الطمأنينة والهدوء أن تكون عصوراً ذهبية للأدب والفن .

ولكن إذا كانت عصور الهدوء والاستقرار صالحة للأدب والفن منشطة لسير الفكر فهل أوقات الثورات الدامية والانقلابات العاصفة معرقلة للأدب قاضية على الفن ؟ وهل هى حقيقة تسلب رجال الفكر ونوابغ الفنون الهدوء الفكرى والرزانة والاتزان وتحول بينهم وبين متعة الفراغ الكافى لنماء آيات الفن

العظيمة ؟ لسنا نجد فى التاريخ أدلة كثيرة تثبت ذلك وتنهض به بل قد نلق فى التاريخ حقائق تنقضه ، فإن أوقات الثورات والانقلابات تستفز المشاعر وتهز النفوس هزاً عنيفاً ، وتحرك أوتار القلوب ، وتنبه رواقد العزائم ، وتستجيش هوامد الهمم ، فتقوى الخواطر ، وتتفتح العقول ، وتشحذ الأحاسيس ، ويتبع ذلك ظهور نوع من الأدب الحر القوى المفعم بالرجولة . وكثيراً ما كانت أيام الحروب والثورات مبعثاً لجلائل المبتكرات وأنضج ثمرات العقول ، وقد كان القرن السادس عشر مثلا من القرون الغاصة بالثورات وضروب الحروب المذهبية الدينية والمعارك السياسية الاجتماعية والمجادلات العلمية الأدبية ، وكان فى نفس الوقت عصر نهضة جم جمامها ، وفاض معينها ، وناهيك بقرن يحتشد فيه من أعيان الإنسانية وأقطاب الفكر أمثال لوثر المصلح ورافائيل وميشيل أنجلو والشاعر أريستو والكاتب مونتين والعلامة إراسموس ، ومن العلماء أمثال جاليليو وكوبرنيكس والفيلسوف ڤانيني وغيرهم من أساطين الفكر وجبابرة العقول ، وقد انتعشت فى ذلك القرن فروع الحياة الفكرية جميعها ووجد كل فن معبراً عنه وممثلا له ، وكانت إيطاليا حين ذاك بخاصة من بين دول أوربا ممزقة الأوصال مصدوعة الوحدة مسرحاً للفوضى والجرائم المنكرة وأفاعيل القسوة ، ولكنها كانت فى عين الوقت أستاذة أوربا وحاملة لواء الحركة الفكرية .

وقد نهضت ألمانيا نهضتها الأدبية العظيمة فى أوائل القرن التاسع عشر وهى فى ظروف عصبية وعهود عاصفة . وكانت مبعثرة الشمل ، منتثرة الأجزاء ، مجروحة العزة القومية ، وقد أتم فيلسوفها الكبير هجل كتابه «ظاهرة العقل» ومدافع الجيوش النابليونية تدوى فى أذنيه ، وقضى فيلسوفها فخت نحبه وهو يذود عن وطنه ويثير حمية تلامذته وأتباعه ، وقد قويت فى ذلك الوقت النهضة الفكرية فى ألمانيا ، فن مذاهب فلسفية عظيمة كأروع ما عرفت

الفلسفة ، ومن آراء طريفة فى التاريخ والنقد إلى نظريات أصيلة فى اللغة والعلوم ، وقد كان عجيباً ظهور تلك النهضة الرائعة فى ألمانيا التى صرعتها الحوادث ، وأساء إليها الدهر ، ولكن أوقات الاضطرابات والثورات من شأنها أن تثير القلب ، وتحرك رواكده ، وتبتعث كوامنه ، فيظهر من النفس كل خفى ، وينكشف كل كنز دفين ، وتتفتح أزاهير الروح الداخلية ، وتخرج منها المبتكرات العظيمة والمنشآت الفنية الخالدة كما خرج هذا العالم الدنيوى من جوف الخواء القديم والفوضى السالفة ، وكأن الحركة العامة الشاملة والاضطراب السائد والقلق المستحوذ يرهف الخواطر ، ويفض أغلاق النفوس فتسخو بقوتها الموفورة ، وتجود بثرائها الجم المدخر ، ولئن كانت حياة الدعة والاستقرار تريح الفكر وتمنحه الهدوء فإنها تغله وتخضعه للنظم والقوانين وتحصره فى حدود العرف الشائع والرأى العام الذائع ، أما فى أوقات الاضطرابات ، فإن العقول تجد مراحاً تنطلق فيه كما شاءت لها طبيعتها إذ يقل ضغط الروابط الاجتماعية ، وتتحطم أغلال العرف وقيود المصطلحات ، وغير عجيب أن تجود تلك الأزمنة بكل نفس ثائرة هدامة خارجة على القواعد المرعية فى الدين والآداب والأساليب المتبعة فى الفكر والمناهج المألوفة فى الفن ، ولقد كانت الديانة المسيحية السامية وليدة ثورة من أمثال هذه الثورات ، ونبت عصر من أشد عصور الاضطرابات ، وكذلك نشأت الديانة الإسلامية الشامخة خلال العواصف والقلاقل وكذلك جاء المتنبي والمعرى فى أزمنة انحلال وقد تزلزلت رواسى الحياة وتداعت أركان الحضارة .

فى عصور الاستقرار يسود نوع خاص من الفكر ، وفى عهود المشادة ينبعث نوع آخر مغاير له ، فأدب عصور الاستقرار يمتاز بجودة الصناعة وحسن الصقل وبراعة الاتزان وانسجام التأليف ولكنه خال من الحيوية القوية والروح

المتوثبة ، وأدب عصور المشادة يمتاز بقوته وشدة أسره وعمقه وغزارته وبعيد ابتكاراته وطريف مخترعاته . وفى أزمنة الاستقرار يتصور الناس أن الفن حلية على جيد الحياة وأن الأدب تسلية تقطع بها ساعات الفراغ ويزجى بها السأم وأن العلم نوع من الرفه . أما أزمنة المشادة فيغلب على أدبها روح الجد ونزعة الجهاد والبعد عن الزخارف وعدم تكلف الصنعة . وفى أوقات الاستقرار تسود أفكار معتدلة لا شذوذ بها ولا مغالاة ، ولكن فى أيام المشادة والانفعالات تظهر الأفكار الكبيرة وكأن النفوس فى تلك الأزمنة تخرج من مداراتها المألوفة فتلمس شيئاً من أسرار الحياة المحجبة وغرائبها المستورة وتبصر لمحات من الأبدية الخفية ويهبط عليها نوع من حكمة الوحى وقداسة الإلهام ويظهر فى تلك الفترة الجليل والسخيف والرائع والمضحك وتتجلى المتناقضات والخوارق والمعجزات وتبرز جوانب الروح المختلفة ونواحيها المتناقضة . وقد ظهرت فى العصر الذى أرسل فيه المتنبى حكمه الخالدة فى مسمع الأيام حماقات الشاعر ابن سكرة وسخافات ابن حجاج .

وعهود الاستقرار عهود اتزان وانسجام فنفوس أهلها هادئة مطمئنة غير مأخوذة بروعة المجهول ولا سكرى بنشوة الجهاد والمكافحة ، ولتوضيح ذلك سأوازن بين شاعر يمثل عصراً من عصور الاستقرار النسبى كالبحترى وآخر يمثل عصراً من عصور المشادة والقلق مثل المتنبى . والبحترى والمتنبى شاعران متناقضان فى كل شئ ، فالبحترى رجل حضارة فهو سلس الطباع غير ناقم ولامتسخط والمتنبى ثائر الطبع غير مستقر النفس . والأول يجىء فى عصور الاتزان وقد استفاضت الحضارة وأسبغت ظلها . والثانى لا يقبل إلى الدنيا إلا فى أوائل الحضارة أو فى نهايتها . فى ثورة التكوين أو فى اضطراب انحلال ، والبحترى أنق صياغة وأرشق معرضاً ، ولكن المتنبى يذهلك عن هنات أسلوبه وعيوب

فنه بقوة روحه وشدة طبعه ، وقد ظهر الأول والخلافة لم تذهب بعد هيبتها ولم تعصف العواصف بقوتها فكانت شخصية الخليفة تستغرق كل الشخصيات وتنيف عليها ، وتبسط ظلها فوقها ، ولكن الثانى جاء فى وقت ملكيات محدودة متعددة الأشباه والنظائر فنمت شخصيته ولم تجد قوة تصدها وتهزمها ، ولذا ترى الأول يتناسى شخصيته ويفنى فى شخصية ممدوحه ، والمتنبى يفيض على ممدوحه من صفات نفسه وشمائلها ، وينسج له حلة من خياله ، والأول كالبحيرة الصافية تحرك عليلة النسائم عذب مياهها وتحدث بها تموجات لطيفة هادئة ، والثانى كالبركان الثائر يقذف بالحمم المستعرة ، ويغلب عليه الألم الدائم والشكوى المستمرة وسوء الظن بالبشر والتقلب بين العطف القوى عليهم والكره الشديد لهم ، والبحترى ناعمة بالملوك نشواته عامرة باللذات أوقاته ، وأحدهما نفس وادعة مطمئنة ، والثانى نفس متحرقة لا تأوى إلى ظل من الأمن ولا ترد مشرع الراحة .

وترى فى شعر كل منهما صورة من عصره ، فالبحترى ينظر إلى الأشياء القريبة المثال الدانية من الفهم ويتجنب كل ما يحسر الفكر ويكد الذهن ويراعى فى شعره موازنة عجز البيت بصدره ويدخر الكلمات الرشيقة والألفاظ الطلية ليقفل بها القافية ويحاول أن يوجد توازناً محوظاً بين الفكرة والتعبير عنها ويقدر لذة الأذن ومتعة السمع فيتخير الألفاظ الرقيقة المهذبة ويطرح الغريب الوحشى والحشو والزوائد فى شعره بلاغة وبراعة وتتخلله موسيقية هادئة منسجمة ، وأوضح صفاته التناسق والسلاسة لا الحرارة وقوة الروح ، وعبقريته عبقرية متزنة وليست عبقرية متقحمة جريئة كعبقرية المتنبى ، وعواطفه هادئة لا تترامى إلى الحدود البعيدة والغايات القاصية ، فهو رجل بلاط قبل كل شىء ولوع بالزينة والتظرف وانتقاء العبارات السائغة المقبولة ، وهو يحس فى نفسه

مشاعر ، ويكظم فيها أهواء ولا يرضى الوجود والحياة لكل فكرة تمر بخاطره وعاطفة تختلج بنفسه . وإنما يتناول الأفكار التى أقرها المجتمع واصطلح عليها العرف حتى لا يصطدم بمذهب ولا يسخف معتقداً ، وإنك لتلمح فى استهانة المتنبى بأوضاع اللغة وشذوذه عن القياس مع طول باعه وتضلعه من العربية صورة واضحة عن فوضى عصره وشذوذه ، ولكنك تسمع خلال شعره نبضات قلب كبير ونزعات روح طموحة لم تلن ولم تذلل . وهو يأخذ الحياة مأخذ الجد فلا يكثر فى شعره من التجميل والزخرف ولا يجرى وراء المحسنات والمرفقات ولا تفارقه فى شعره تلك النظرة الأخلاقية النافذة التى امتاز بها عن سائر شعراء العربية والتى هى أساس فلسفته فى الحياة وخلاصة تأمله الطبيعة البشرية ، وخلاصة القول إن البحترى مثل صادق وأنموذج تام لأدب الصنعة والزخرف الذى يظهر فى عصور الاستقرار كما أن المتنبى خير عنوان لأدب القوة والابتكار الذى يسود فى عصور المشادة والقلاقل والاضطرابات .